إدوارد سعيد

أثره في العالم... وفينا

إدوارد سـعيـد... مـايزال مـعي!

□ عمر البرغوثي

سماح، صديقي الذي لم تَعترفْ باليأس يومًا، سألَتني كيف أثَّر إدوارد سعيد في جوانب عملي المختلفة. إليكَ ردّي التلقائيّ، إذ لم يتّسع الوقتُ لإحكام العقل.

إنّ إدوارد لا يزال يؤثّر فيّ.

نعم أستخدم المضارعَ بوعي وإصرار؛ إذ إنّ الفعلَ الماضي لا يَليق بالعِظام أمثاله. ففي حالة هؤلاء، تَفْشل نبضةُ القلب الأخيرة في إيذان النهاية. إنّها محضُ مقدّمة لنفي حياة الجسد، ولكنها لا تعوّق بقاءَ الحلم. يموت جسدُه وتظلّ ذكراه تحلِّق حولنا، في داخلنا، تزورنا، تلازمنا، تستنهضنا، تؤنّبنا كمعلِّم لحوح، وتَفْرض علينا بعظَمتها أن نتواضع وأن نتعلم وأن نقاوم.

لم يعلِّمني إدوارد سعيد في الجامعة؛ فقد دَرَسْتُ الهندسة، ولم أسجِّل يومًا لمساق في الأدب المقارن أو النقد الأدبيّ. ولكنْ منذ أن التحقتُ بجامعة كولومبيا وأنا أسمع عنه، وأقرأ له، وأنبهر بمدى إنجازه واعترافِ الغرب به، أنا الذي كنتُ في حينه أعتبر هذا الاعترافَ بمثابة مفتاح الجنة. كان لي، كما لأمثالي، قدوةً لمجرد كونه فلسطينيًا نال المجدَ من مصبِّه، فبات بحد ذاته منبعًا له.

لم أكن يومًا أُقدِّس العظماءَ ولا أهابهم، لذا لم تسمح لي كرامتي بأن أستجديه ليشارك في أنشطة النادي العربيّ في الجامعة، بعد أن رفض مجرّدَ اللقاء بي لنقاش الموضوع. غضبتُ من تلك الهالة التي أحاطتْه، بل ارتداها بشكل طبيعيّ، تمامًا كإحدى ستراته الأنيقة: «شو يعني عبقري؟ شو شايف حاله، إلّي خَلَقه ما خَلَقْ غيره؟!» ثم رآني مرةً أُلصِقُ إعلانات لندوة هامة نظّمها النادي لإحدى الشخصيات الأكاديمية المرموقة. كان الوقتُ مبكّرًا، وكنتُ كعادتي أتفادى الأماكن المألوفة (أي «القانونية»/المملّة) لتعليق المناشير في الحَرَم الجامعيّ، فأُلصقها على الأدراج العريضة، وعلى أرضية الممرّات التي يسير عليها معظمُ الطلبة. كنتُ أنسِّقها بأشكال هندسية مميّزة لأَسرق أعينَ الطلبة. لمحتُه يقترب، يختلس نظرةً سريعةً مصمَّمةً لتبدو غيرَ مبالية بالمنشور.

سألني مازحًا: «لماذا تشوِّه أدراجَ الجامعة بهذه المناشير من مطلع الصبح؟»

جاوبتُ بثقل مقصود: «أساعد في الإعلان عن نشاطنا القادم.»

علّق: «يبدو أنه نشاط مهمّ.»

لم أستطع لجمَ سخريتي: «كلّه بفضل دعمك الرائع لنا، يا بروفيسور!»

امتصّ الضربةَ الأولى كمربٍّ متمرِّس أو كأبٍ حنونٍ يَعْترف بقسوته: «لا داعي للتهكُّم. تعالَ إلى مكتبي وسنتكلم.»

لم تكن كلُّ قرابين الآلهة لتَثْركَ عندي مثلَ تلك النشوة التي انتابتني حين نَطَقَ بجملته الأخيرة.

لم أقدِّسْ أحدًا قطّ، ولكنْ إنْ كِدتُ... فهو.

بعدها، اكتشفتُ سرّ الهالة: إنه لا يحترم إلا الذين يبذلون - برأيه - جهدًا مبدعًا أو غيرَ عاديّ من أجلِ قضيتهم. لذا بدا بعيدًا، متعاليًا، صعبَ المنال لمن لم يُقْنعه بعدُ باستحقاقه احترامَه. ومن ثم كان دائمًا يَعِظُ بمحورية الإبداع، والتجاوز، وتحدّي المألوف. كانت لفظة excellence تتصدر قاموسَه اللانهائيّ حين يتحدَّث معنا، فأضحت جزءًا من تكويننا الفكريّ. وتبقى حتى يومنا هدفًا ودافعًا.

كنتُ معه في القدس

في ١٩٩٥ جاء ليزور قُدْسَه، فوجد قُدْسَنا حزينةً تنتظر بصبر. قابلناه، أنا وصفاء، في فندقه المفضّل، «أميريكان كولوني،» فطَلَبَ منّا أن نأخذه إلى بيت عائلته الذي عاش فيه صغيرًا في حيّ الطالبية الراقي. جلس في الكرسيّ الأماميّ، بجانبي، كي لا يفوتَه أيُّ مشهد. هو الذي دلّني على الشارع، وكأنّه تركه أمس! حين وَصَلْنا، انقلب المفكِّرُ الحكيمُ إنسانًا اختلطتْ عليه الأمورُ، بل طفلاً يحاول لملمةَ ذكرياته ليلتحم مع «المكان» الذي لم يجد بَعدَه مكانًا. تَفَحَّصَ البيتَ والشجرَ كَمَنْ يعود من سهرة ليكتشف أنّ لصوصًا سطوا على منزله، فيتفقّد بدقةٍ كلَّ ما أخذوه أو تركوه. لم أره هكذا أبدًا: يبتسم حين يروي لنا أين كان يلعب وفي أيّ غرفة

تربّى، ثم يستشيط غضبًا حين يكتشف أنَّهم قَطَعوا شجرةً ليُوسعوا مرآبَ السيارة. يقرأ على مدخل البيت عنوانَ الساكن الجديد، سارقِ الأحلامِ والمكانِ والزمان: منظمة مسيحية صهيونية. يَحْبس دمعَه، ولا يَحْبس لعناته. يَطْلب منّي أن نرحل على الفور. أُسرع مبتعدًا بالسيارة، وألحه إلى جانبي يلتفت مرةً إلى الخلف. «يجب أن نَمْضي قُدُمًا مهما كان،» يقول.

كان معي بعد جنين

في العام الماضي، بعد ملحمة جنين، أيْ بعد شهر من الحصار ومنع التجوال المتقطع، عادت فرقتُنا إلى التدرب على عملنا الجديد، «حيفا، بيروت، وما بعد.» حضر الجميعُ في صمتٍ غيرِ مألوف. لم أكن أفضل حالاً من الآخرين، ولكنّي كمدرِّبٍ اضطررتُ إلى المبادرة. قلتُ: «لا يوجد منّا مَنْ لم يتفجَّرْ في داخله ألفَ مرة. كلُّنا بحاجة إلى مواساة ومساندة، ولكنّ الأهمّ هو أنّنا أتينا هنا للتدريب. جئنا لنقاوم بأسلوب نَعْرفه، برقصنا، بعملنا الثقافيّ، بنبش الذاكرة. لنقاومْ!» لم أكن يومًا جيدًا في الخُطَب ولا في التحفيز. ولكنّ إدوارد سعيد كان معي؛ فمساهمتُه في المقاومة الثقافية أصبحتْ تراثًا ومُلْهِمًا.

في تلك الفترة العصيبة، ومن وحي تلك المقاومة، صممتُ رقصةَ «الكوفية» ضمن العمل الجديد. وهي تبدأ بستة راقصين وراقصات يجلسون على مقاعد المقهى، يقرأون الجرائد، ينفعلون، يتأملون. وفي الخلفية، يتلو مارسيل خليفة شيئًا من قصيدة «أحمد الزعتر» لمحمود درويش:

«اتّكأتُ على مياهٍ فانكسَرْت

أكلَّما نَهَدَتْ سفرجلةٌ، نسيتُ حدودَ قلبي والتجأتُ إلى حصارٍ

كي أحدِّدَ قامتي يا أحمد العربيّ؟

...

لم أَغسلْ دمي من خُبزِ أعدائي، لكن

كلَّما مرَّتْ خطاي على طريق فَرَّتِ الطرقُ القريبةُ والبعيدة

كلما آخيتُ عاصمةً، رَمَتْني بالحقيبة.

...

آه من حلمي ومن روما

جميلٌ أنتَ في المنفى، قتيلٌ أنتَ في روما.»

يَصْعد لحنٌ صاخبٌ. يَدْخل راقصون آخرون إلى المشهد بغضب وكرامة. يبدأ نفضُ الغبار، وتبدأ الرعشةُ تنتشر من واحد إلى آخر. يتشقّق الصمتُ.

كان إدوارد سعيد معي. لا يُمْكن للغضب ولا للكرامة أن يحقّقا شيئًا من دون تخطيط وتنظيم. هكذا عَلَّمَنا... دون أن يعلِّم.

كان معي في «امتحان» الفلسفة

ومن فرقة الفنون إلى جامعة تل أبيب، أَكْتشف إدوارد سعيد مرةً أخرى يَعْبث بدماغي بغير استئذان. حين قابلني عميدُ الكلية ليقرِّر ما إذا كان سيَسْمح لي، أنا الحاصلَ على شهادة الماجستير في الهندسة، أن ألتحق ببرنامج الدكتوراه في الفلسفة، سألني إنْ كنتُ أجيد العبريةَ لأَحْضرَ المحاضرات. «لا،» أجبتُ. «ولكنْ حتى لو كنتُ أجيدها فلن أتعلَّم بها. إنّ حاجزًا نفسيًا هائلاً يمنعني من استدخالها. فهي أولاً وآخرًا بالنسبة إليّ لغةٌ كولونيالية.»

لم يُخْفِ استغرابَه، ولكنَّه انتقل إلى السؤال الأصعب: «لماذا تعتقد للحظة أنّ جامعتنا ستَقْبَلك كطالب دكتوراه في مجالٍ لا خبرة لك فيه، وفي موضوع يتجاوز الخطوطَ الحمراء في الأكاديميا الإسرائيلية؟» قلت: «أَعْلم أنّ طرح الدولة الديمقراطية العلمانية ليس مألوفًا هنا؛ ولكنْ قد تُسْهم مقاربتي الأخلاقية للموضوع في إغناء الخطاب الثقافيّ حول الصراع بتجاوزها لأطروحة دولتين لشعبين، وببحثها عن مَفْهمةٍ جديدة للحقّ الأخلاقيّ باعتباره العنصرَ الأهمَّ في الحلّ.»

كان إدوارد سعيد معي. لقد هَشَّمَ أصنامَنا، فرأينا النورَ أَسْطع، وعرفنا معنى التجاوز.

لماذا يضع سعيد اسمه على مسخرة سياسية متّشحة برداء الثقافة والموسيقى؟ (مع دانيال بيرينبويم)

كان معي في فضح العبودية

في مؤتمر في الجامعة ذاتها حول دور الأكاديميا في الظرف الراهن، وقفتْ ممثلةٌ عن «تعايش،» وهي إحدى منظّمات السلام، تَستعرض تحدّي منظّمتها لحصار قوات الاحتلال لمنطقةٍ في الخليل. فقد قامت تلك المنظّمة بشحن مواد غذائية وغيرها لدعم صمود المواطنين الفلسطينيين في أراضيهم المهدَّدة بالمصادرة. قلت: «بالفعل كان عملاً إنسانيًا وتضامنيًا نبيلاً. ولكنْ ما هذا التعايش الذي تَدْعُون إليه؟ تعايُشُ الأسياد والعبيد؟ تعايشُ الأسياد النبلاء مع العبيد الممتنّين؟» صرخت المتحدثةُ اعتراضًا، ولكنّ الغالبية أسكتتها بتصفيق غير متوقّع.

لقد كان إدوارد سعيد حاضرًا في مخيّلتي هنا أيضًا، يحفّز أوسلو ويَلْعن تخاذلَ العبيد.

كان معي في نقد إدوارد سعيد!

في صيف هذا العام، دُعِيَت ابنتي جنى، وهي طالبة متفوقة في آلة الكمنجة في المعهد الوطنيّ للموسيقى برام الله، إلى ورشة موسيقى مع مؤسسة «الديوان الشرقيّ ـ الغربيّ» التي أسّسها سعيد مع صديقه الأرجنتينيّ ـ الإسرائيليّ دانيال بيرينبويْم في إسبانيا. بعد تردُّد وبحثٍ متعمّقٍ وحوارٍ مع جنى، رفضنا الدعوةَ. فعند زيارتي لموقع المؤسسة على شبكة الإنترنت فوجئتُ بخطاب اليسار الصهيونيّ البغيض الذي طالما ناضلَ سعيد ضده بشراسة ومبدئية، بعد أن اعترف بأنه ضُلِّل به زمنًا في السبعينيات. اكتظّت الصفحةُ الإلكترونيةُ بصور شمعون بيرس وشلومو بن عامي وعربٍ قريبين لهما، وأوروبيين منتشين لتعانق الطرفين. كما فاضت بمقولات التغلُّب على «الحاجز النفسيّ» الذي يَفْصل إسرائيل عن العرب، ونَظَّرتْ لتقارب «الحضارات الثلاث: الغربية والإسرائيلية والشرق ـ أوسطية»!

لم أفهم هذا التناقض: لماذا يضع سعيد اسمَه على مثل هذه المسخرة السياسية المتّشحة برداء الثقافة والموسيقى وتجرّدهما من السياسة والصراع؟ لا يمكن! لا بد أنّي أخطأتُ في تحليلِ ما قرأتُ، قلتُ لنفسي. فمجردُ وجود اسم إدوارد سعيد كان كافيًا، أو يكاد، لتشريع هذه المؤسسة من وجهة نظري. حين لم أنجح في حلّ اللغز، كتبتُ له أسأله، أُعاتبه بحبِّ طالبٍ يَحْترم أستاذَه دون حدود فلا يَهُون عليه أن يُمسَّ بسوءٍ أو لغطٍ أو أن يُستغلَّ اسمُه. كتبتُ أستنجد به ليرسِّخ في ذهني صورتَه الأولى. ولكنْ، مَنْ أنا لأسأله، بل لأسائله؟ مَنْ أعطاني الحقّ في أن أُعاتبه؟ كيف أتجرأ على التشكيك في حنكته السياسية؟ إذًا لن أرسل الرسالة! ولكنّه لو كان مكاني لأرسلها. إذًا، سأرسلها، لأفي بصدق المبادئ التي تعلمتُها منه، حتى لو أدّى ذلك إلى استيائه مني. أرسلتُها. وكما توقّعتُ، لم يُجِبْ.

حين ضغطتُ مفتاحَ SEND في بريدي الإلكترونيّ كان إدوارد سعيد معي، يحثّني على النقدِ الصادقِ والتشكيكِ في المقدّسات... حتى لو كان هو هَدَفَ الاثنين!

لا يزال معي

بعد رحيله الجسديّ، بكيتُ في داخلي، فكان أصعبَ بكاء. إنّ أسخن الدموع هي تلك التي لا تَخْرج من مُقْلة العين لتَبرُدَ وتُريحَ، بل تستقرّ ما بين العقل والقلب فتَلْسَعهما معًا.

شيء من الندم على رسالتي الأخيرة أَلَمَّ بي. لماذا صممتُ على إرسال نقدي إليه رغم علمي بوضعه الصحيّ، ورغم معرفتي بأنّ الموضوع كلّه لا يشُوب عبقريتَه ومبدئيّته في كلّ المساحات الأخرى من حياته؟

لم أتخلّصْ من تأنيب الضمير إلا بعد أن نبشتُ عن جوابٍ فوجدتُه في صيغة أسئلة: ما دمتُ مقتنعًا باستمرارِ وجودِ فكره معنا، ألستُ مجبرًا على نقده كما لو كان معنا؟ ألم ينتقدْ دون هوادة قادةً سياسيين يفوقونه خبرةً في السياسة؟ ألا يحقّ للوديان أن تشكو للجبال اعوجاجَها أحيانًا؟

لقد علّمَنا أن نسأل هذه الأسئلة دون مواراة ولا نفاق... إذا رَغِبْنا حقًّا في التغيير.

رام الله

عمر البرغوثي

مدرّب، وأحد مصمّمي الرقص في فرقة الفنون الشعبية الفلسطينية برام الله. يَدْرس الفلسفة (الأخلاقيات) في جامعة تل أبيب، وموضوعُ بحثه: «نظرة أخلاقية إلى الدولة الديموقراطية ـ العلمانية في فلسطين التاريخية.»